

3 الأبرار الهالكون

تحليل الأحداث، وتفسير التاريخ، وتسمية المقدمات الخفية المؤدية إلى النتائج المنظورة، كل ذلك إنما يتبع العقيدة التي يحملها الشخص المحلل المفسر، والميزان الذي يزن به الأمور والظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ومن هنا اختلفت التفسيرات والاجتهادات اختلافاً بينا واضحاً، وصار المؤمن ينظر أشياء من العلاقات بين النتائج وبين بعض الأحداث والأحوال نظراً واضحاً كأنها أمام عينيه، ويلمسها بيده ويفركها؛ فتزول قشورها التي تحجبها، بينما لا يراها الكافر والجاهلي أو الفاسق الذي طبع على قلبه وتغلف بأغلفة الشهوات والغفلات.

إن هذا الاختلاف مرده اختلاف الميزان فحسب.

ومن أهم الظواهر التاريخية التي يختلف في تفسيرها وتحليلها ظاهرة الاضطراب الاجتماعي والتراجع والخراب المدني من بعد التقدم العلمي والعمراني والفني، واستمرار التقهقر التدريجي، حتى ربما يختتم بدمار كامل فجائي بقوة غير عادية.

فالكفار والفساق يدورون في حلقة مفرغة من التعليقات لهذه الظاهرة كلها أو هام، أما المسلم فله قول فصل واحد في تفسير هذه الظاهرة مستمد من كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، وأوجزه الفاروق عمر ابن الخطاب¹ بجملة واحدة جامعة حين سئل:

(أتوشك القرى أن تخرب وهي عامرة؟)

قال: إذا علا فجارها على أبرارها^(١).

هذا هو السبب، والداء الدوي.

إن علو الفجار على الأبرار سبب الاضطراب والخراب.

يعلو الفاجر، فيولي أمثاله الأمور. ولا ينفك كل فاجر أن يكون أسير شهواته، فيطبع قلبه، ويعيش في غفلة عن ارتياد ما فيه منافع قومه، ثم يكون أسير مصالحه، فيظلم ويشتط ويتعسف، فتهدر بالتالي طاقات كثيرة وتتوارى الكفايات، تطلب لنفسها الستر، ستر عرضها من الاعتداء، وبدنها من العذاب، ويعود لا يتصدى لأمر الأمة إلا كل جاهل أناني، فيعم الاضطراب الاجتماعي، ثم من بعده الخراب الاقتصادي والمدني العلمي.

والله سبحانه شديد الغيرة على دينه، وعلى أعراض العباد، فيمهل الأمة حين يعلو الفاجر، ويجب أن تبادر جماعة من عباده الأبرار الإصلاح الحال ومنازعة الفجار والتطويح بهم، لترجع الأمور إلى نصابها ويعود العمران، فإن بادرت فرقة أمر ملائكته بنصرهم وفتح عليهم ينابيع فضله وبركته وتوفيقه، وإلا فإنه يمهل أخرى من بعد أخرى، حتى إذا تآدى الفاجر في فجوره، وحتى إذا تآدى الأبرار في خوفهم وجبنهم وسكوتهم وقعودهم عن النهي عن المنكر اشتد غضب الله، فإذا غضب عم وشمل غضبه الفجار بما فجروا وظلموا، والأبرار بما سكنوا وتقاعسوا ورضوا الذلة.

وقد دلت الآيات والأحاديث على ذلك، كما في تعقيبات شيخ الإسلام وإمام الدعاة تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني على قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا

فَتَنَةً لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم/ ٤٥.

قال /:

وقرأ طائفة من السلف:

(لتصيين الذين ظلموا منكم خاصة)، وكلا القراءتين حق؛ فإن الذي يتعدى حدود الله هو الظالم، وتارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه، وقد يجعل ظالماً باعتبار ما ترك من الإنكار الواجب، وعلى هذا قوله:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَهْنِئْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فأنجى الله الناهين. وأما أولئك الكارهون للذنوب، الذين قالوا: ﴿لِمَ نَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] فالأكثر على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين، فأنكروا بحسب قدرتهم.

وأما من ترك الإنكار مطلقاً فإنه ظالم يعذب، كما قال النبي ﷺ: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه"، وهذا الحديث موافق للآية.

والمقصود هنا أنه يصح النفي والإثبات باعتبارين، كما أن قوله:

﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] أي لا تختص بالمعتدين، بل يتناول من رأي المنكر فلم يغيره، ومن قرأ: "لتصيين الذين ظلموا منكم خاصة"، أدخل في ذلك من ترك الإنكار مع قدرته عليه، وقد يراد أنهم يعذبون في الدنيا، ويبعثون على نياتهم، كالجيش الذين يغزون البيت، فيخسف بهم كلهم، ويحشر المكره على نيته" (١).

ويلاحظ سيد / هنا، في معرض كلامه عن الآيات التي استشهد بها ابن تيمية: إن الله سبحانه ذكر نتيجة الذين ينهون عن السوء، وهي النجاة، ونتيجة الذين ظلموا، وهي إصابة العذاب البئيس لهم، أما الذين أنكروا بقلوبهم فقط ولم ينهوا عن المنكر، فإن الله سبحانه لم يبين لنا نتيجتهم ولم يقص علينا خبرهم، بل أهمل ذكرهم والإهمال نوع جزاء لمثل هذه الطائفة.

والحقيقة أن أكثر من تكلم في هذه الآيات ذكر أن هؤلاء الذين سكتوا نالهم العذاب بسكوتهم، وشملهم العقاب، وللقراطي في تفسيره تصريح واضح بذلك.

ووصف بعض الأفاضل هذا العقاب بأن: "قانون العقاب الجماعي في سنة الله الكونية" وهو (قانون رهيب مخيف يدفع كل ذي علم وفقه، وكل ذي حكم وسلطان، إلى المسارعة، والمبادرة فوراً لتغيير المنكر، دفعا للعذاب عن الكل)^(١).

(وهذا اللزوم أشد بالنسبة للحكام، لأن بأيديهم السلطة والأمر والنهي، وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فإذا أصلحوا الأحوال حسب أحكام الشرع وأزالوا المنكر، وأقاموا العدل، وقضوا على أسباب المعصيات أثابهم الله تعالى حسن ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ويمكن لهم في الأرض، وإن هم تقاعسوا عن ذلك انطبق عليهم حكم الله وجرى عليهم سنته، وخسروا الدنيا والآخرة، نعوذ بالله من الخذلان)^(٢).

(١) مجلة التربية الإسلامية، السنة السادسة/ ٢٦.

(٢) مجلة التربية الإسلامية، السنة السادسة/ ٢٦.

وصاحب القلب الحي يحس بفطرته الإيمانية أن الذي يعيشه ذراري المسلمين اليوم من نكسات وهزائم وتراجعات إنما هو مقدمة ونذير بين يدي ما هو أشد وأنكى من عذاب، والأمة الإسلامية اليوم لا يصدق عليها اسمها كل الصدق؛ فإن الانحراف قد أصابها، (ويكفي الأمة انحرافاً أنها تركت الجهاد في سبيل الله، وأخلدت إلى الأرض، ورضيت بالحياة الدنيا من الآخرة، وأقبلت على الشهوات تعب منها، وأسرفت في المعاصي؛ حتى أذلها الله، وخذلها الخذلان الأكبر، وجعل قيادتها في أيدي المنحرفين العابثين) ^(١).

ووعي هذه الحقيقة يلزم من علت همته أن يرفق بنفسه، ويرحمها، ويتجنب أن يمسه هذا القانون العقابي الرهيب.

وإنه لحصار شديد هو محاصر فيه الآن.

لا يكفيه أن يفلت من خطط ترويض الأشبال وتحويلها إلى طباء جفولة. بل لا يكفيه مجرد الاستعلاء.

ليس له من طريق نجاة من هذا الحصار الذي يحاصره به هذا القانون الرهيب إلا كوة يستطيع أن يفلت منها؛ كوة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنازعة أهل المنكر، وسلوك سبيل الدعوة، والإهابة بالأمة أن تسارع إلى الصلاة وتحكيم شرع الله، من قبل أن يجرفهم "قانون التماثل"، الذي هو من سنة الله العامة في الكون، فيهلكوا، ويصيبهم العذاب، من بعد أن ارتكبوا مثل العصيان الذي أهلك الله بسببه الغابرين، فإن (النظير يأخذ حكم نظيره وإن ما يجري على الشيء يجري على مثيله ويستحيل أن يفترق المتساويان من الحكم، كما يستحيل أن يتساوى المختلفان في الحكم).

وهذا القانون يسري حكمه على الأفراد والأمم على حد سواء، وفي أحوال الدنيا والآخرة، وعلى هذا دل القرآن الكريم، فمن ذلك.

أ- قوله تعالى مبينا ما جرى لليهود من بني النضير من نكال في الدنيا بسبب كفرهم ونقضهم العهد وكيدهم للرسول ﷺ وللمؤمنين: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. فقله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ صريح الدلالة على قانون التماثل، إذ إن من معناها: تأملوا يا أصحاب العقول السليمة بما وقع لهم، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم إذا فعلتم مثل فعلهم، فإن سنة الله واحدة تجري على الجميع، وإن ما يجري على شيء يجري على نظيره. يوضحه أن الاعتبار لا يتأتى مطلقا ولا يكون للأمر به فائدة إلا إذا كان المثل يأخذ حكم مثيله.

ب- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا يُمْنُونَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]. فقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ دليل على أن ما جرى للمجرمين السالفين يجري على المجرمين اللاحقين، فالنظير يأخذ حكم نظيره، وأن سنة الله واحدة تجري على جميع المجرمين، والله المستعان.

ج- قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠] دليل واضح أن الدمار الذي حل

بالكافرين السابقين سيحل بالكافرين اللاحقين، لأنهم متساوون في وصف الكفر والعناد والتكذيب فيتساويان في العقابة.

د- قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، فالجزء يلحق فاعل السوء أيًا كان، دون محايدة ولا تمييز ولا تخلف.

هـ- قول الله تعالى: ﴿فَجَعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣١) ﴿[القم]﴾. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجن: ٢١]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] فالقرآن شاهد على صحة قانون التماثل بشقيه، أي التساوي في الحكم والعاقبة بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين.

فإذا فهم المسلمون مدلول هذه الآيات القرآنية التي ذكرناها للتدليل على صحة قانون التماثل وأمثالها من الآيات الأخرى، والتي فيها ذم للأقوام السابقة، كاليهود وغيرهم لتلبسهم بالأفعال القبيحة والأوصاف الذميمة: عرفوا أن الذم كان لهذه المعاني وأن الذم يلحقهم لا محالة إذا فعلوا فعلهم، وأن العقابة السيئة تصيبهم كما أصابتهم فلا يغرمهم مجرد انتسابهم للإسلام من دون عمل وانصباف بمقتضاه (١).

وقد جعل إقبال / هذا القانون من قواعد الهدى الإسلامي، وبين في المحاضرة الخامسة من المحاضرات التي ألقاها بمدينة مدراس الهندية:

(إن الأمم والجماعات مأخوذة بأعمالها في هذه الحياة، ولهذا يكثُر القرآن من قصص الماضين ويأمر بالنظر في تجارب الأمم، غابرها وحاضرها) ^(١).

إن هذه القوانين الرهيبة المفزعة لا يفهمها أكثر الناس، وليس لهم استعداد للتصديق بها، إنما يفهمها الدعاة إلى الله فحسب، ولا بد لهم من مسارعة إلى القيام بواجب النهي عن المنكر، ليؤمنوا من فرع يومئذ. أيها الأبرار الصالحون.

أيها الزهاد العابدون.

أمامكم خطر القانون الرباني الرهيب إن تخارستم.

لا يغرنكم زهدكم ولا صلاتكم.

انطقوا بالحق، وانهوا عن المنكر، وإلا... فهو الهلاك.

